كُنّاشة: (١٩)

كتاب (إجازات علماء البحرين):

موسوعة للتّراجم وللتّاريخ وللأدب البحرانيّ

إبراهيم عليّ السّفسيف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ.. الحمد للّه ربِّ العالمين. والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا مُحمَّد وأهلِ بيته الطَّاهرين. ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾.

****

من واقع تجربة شخصيّة، فإنّني لم أعاين قيمة الإجازات العلميّة في تكوين المعرفة الدّقيقة عن حياة عالم من العلماء بجوانبها المختلفة، إلّا حين وفّقني الله -تعالى اسمه- للبحث في سيرة الشّيخ جعفر بن كمال الدّين البحرانيّ(١٠١٤-١٠٩١هـ)؛ إذْ تبيّن أنّ قدرًا مهمًّا من سيرته مستلّ من إجازات رواية الحديث الّتي كتبها لتلامذته.

وفي هذا تأكيد لحقيقة بيّنة، وهي أنّ الإجازات العلميّة تُعدّ وثيقة تاريخيّة عن الحياة العلميّة والتعليميّة والاجتماعيّة والسّياسيّة، لايمكن بحال من الأحوال تجاوزها عند ترجمة شخصيّة مؤثّرة برزت في حقل تخصّصيّ ما، أو كتابة تاريخ منطقة شهدت حراكًا علميًّا في وقت من الأوقات.

وكما مثّلنا للشّخصيّات العلميّة بابن كمال الدّين البحرانيّ، نمثّل للمناطق الّتي شهدت حراكًا علميًّا بمنطقة إقليم البحرين، والّذي -وفق رأي الدّكتور وسام السّبع- لم يشهد استقرارًا سياسيًّا مكّن المجتمعات الإماميّة فيه ترتيب وضع إداريّ يسمح لها إيلاء الجوانب الثّقافيّة والأدبيّة والفكريّة مكانتها الّتي تستحقّها في حياة الشّعوب، عدا بعض الفترات التّاريخيّة، وخصوصًا القرن الحادي عشر والثّاني عشر الهجريّين[1].

من وعي وإدراك هذه الحقيقة، وقبل خمسة وعشرين عامًا، عمد شيخ المحقّقين البحرانيّين الشّيخ محمّد عيسى آل مكباس إلى جمع الإجازات العلميّة الخاصّة بعلماء البحرين، في كتاب حمل اسم (إجازات علماء البحرين)، مع عنوان جانبيّ (موسوعة في التّراجم والتّاريخ والأدب).

اشتمل الكتاب على مقدّمة أشار فيها الشّيخ إلى أنّ الكثير من التّراث الإسلاميّ صار للضّياع بسبب الظّروف الّتي عصفت به. إلّا أنّ الإجازات العلميّة المُختصرة والمُتوسّطة والمُطوّلة حوت في طيّاتها شيئًا من التّراجم والتّاريخ والأدب والعلوم. ولولاها لضاعت جهود، وطُمست أعلام، واندثرت معالم. ثمّ عرض مجموعة من تعريفات الإجازة، الّتي من أوجزها الإذن في الرّواية لفظًا أو خطًّا، ليعرّج بعدها على عبارات الإجازة، وأنواعها، وطرق منحها، وأقسامها. بعدها انتقل إلى الإجازات العلميّة الّتي جمعها، فحقّق إجازات لـ(١٨) مُجيزًا من علماء البحرين، مبتدئًا -وفق التّرتيب الهجائيّ- بالشّيخ جعفر بن كمال الدّين البحرانيّ، ومختتمًا بالمُحدّث الشّيخ يوسف البحرانيّ(ت:١١٨٦هـ)، حيث توزّعت على (٣٠) مُجازًا من علماء البحرين وغيرهم.

[1] يُذكر أنّ أطروحته للدّكتوراة حملت عنوان: واقع المدارس الدّينيّة في البحرين في القرنين الحادي عشر والثّاني عشر الهجريّين.

وإنّه من الحقّ أنْ يُقال: إنّ هذا المُنجَز التّأليفيّ يوفّر مادّة ثريّة عن علماء البحرين من حيث النّسب والألقاب والعوائل العلميّة، ومن حيث نوعيّة النّشاط التّعليميّ للشّيوخ والتّلاميذ، ومن حيث طبيعة الظروف الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسّياسيّة الّتي كانت سائدة في عصورهم.

وهو الأمر الّذي من شأنه أنْ يُصلح شيئًا من الخلل الحاصل في التّأريخ للمدارس العلميّة عند أتباع المذهب الشّيعيّ الإماميّ الاثني عشريّ؛ فقد لاحظ غير واحد من المهتمّين بتراث المدرسة العلميّة البحرانيّة، أنّ الأضواء لم تُسلّط على علمائها ومؤلّفاتهم بشكل كافٍ بالمقارنة مع ما حظي به علماء المدارس الشّيعيّة(الحوزات) الأخرى ومؤلّفاتهم.

يتبيّن ذلك من مطالعة الكتب الّتي أرّخت لحركة التّشريع والفقه في إطاره، ككتاب المرحوم الشّيخ عبدالهادي الفضليّ في كتابه (تاريخ التّشريع الإسلاميّ)، والشّيخ جعفر السّبحانيّ في كتابه (تاريخ الفقه الإسلاميّ وأدواره)، والشّيخ عدنان فرحان آل قاسم في موسوعته (تاريخ الحوزات العلميّة والمدارس الدّينيّة عند الشّيعة الإماميّة)[1].

وهذه مسألة ينبغي أنْ يتمّ التّداول حولها علميًّا، وتقويم جهود المحقّقين والباحثين البحرانيّين في التّعريف بهذه المدرسة، واستشراف المطلوب لإنجاز ذلك.

---

[1] من باب الشّيء بالشّيء يُذكر، سجّل الشّيخ فاضل الزّاكي أنّ التّأريخ المحلّي لعلماء المدرسة البحرانيّة ابتدأ على يد الشّيخ سليمان بن عبدالله الماحوزيّ(ت:١١٢١هـ) والمعروف بالمحقّق البحرانيّ، بعد أنْ طلب إليه الميرزا عبدالله الأفنديّ(ت:١١٣٠هـ) صاحب كتاب (رياض العلماء وحياض الفضلاء) أنْ يكتب فهرستًا لعلماء البحرين، فأجابه إلى ذلك بـ(فهرست علماء البحرين)، حيث ترجم لـ(٣٤) عالمًا بحرانيًّا على نحو مختصر. انظر: مقدّمة تحقيقه للكتاب: ٦.

ما يلفت النّظر في هذا الكتاب، أنّ عدد الإجازات العلميّة المذكورة فيه قليل قياسًا لواقع الإجازات المنشورة أو الّتي رصدتها فهارس المخطوطات، فضلًا عن غير المعروفة والصادرة عن علماء المدرسة البحرانيّة.

وخطر بالبال حينها، لو أنّ الشّيخ -حفظه الله وسدّد خُطاه- وسّع عمله فاستقصى كلّ الإجازات أو أغلبها، وهو الخبير في هذا الحقل.

ولو أنّه ترجم للمُجيزين والمُجازين، ولو ترجمة قصيرة.

ولو أنّه وثّق نسخ الإجازات، عددًا وأماكن وحالات.

ولو أنّه أرفق في الكتاب صور نسخ الإجازات،

ولو أنّه رتّب الإجازات وفق صدورها الزّمنيّ بدل التّرتيب الهجائيّ لأسماء المُجيزين؛ إذْ ذلك ادعى لاستخلاص النتائج، وبناء التّصوّرات، وإصدار التّقييمات.

لكنْ، حين أرسلتُ له ما كتبتُ إلكترونيًّا، أتحفني بالقول:

إنّ الكتاب صدر بحلّة جديدة في خمسة أجزاء كبيرة سنة ١٤٤٢هـ.

وحتّى ذلك الوقت الّذي يمكنني فيه مطالعة الكتاب، أقول:

إنّ هذه الموسوعة لا تُساهم في إصلاح الخلل الّذي أشرنا إليه في الأرخنة الإماميّة للمدارس العلميّة فحسب، بل إنّها تُعرّف الوسط الثّقافيّ المحليّ بتراثه العلميّ المُغيّب. وهذا هو الأهمّ.

السّبت: ٣٠ جمادى الأولى ١٤٤٧هـ/ ٢٢ نوفمبر ٢٠٢٥م.